«موسم الهجرة إلى الشمال»

ليل لا يعقبه نهار!

الكتاب: موسم الهجرة إلى الشمال
الكاتب: الطيب صالح
عرض: سميرة سليمان

"إن موسم الهجرة إلى الشمال، كانت تحديا للنظرة الإستشراقية.. إذ لا يجب أن نصير مسوخاً لآخرين.. لابد أن نتطور في إطار ما لدينا من سياق إسلامي تاريخي حضاري خصب".

هكذا يصف عبقري الرواية العربية السوداني الراحل مؤخرا الطيب صالح روايته الذائعة الصيت "موسم الهجرة إلى الشمال" الصادرة عن دار العودة ببيروت، والتي اختيرت كواحدة من أفضل مئة رواية في القرن العشرين وذلك على مستوى العالم العربي، وترجمت إلى كثير من اللغات الأجنبية وقرّرت على طلاب بعض الجامعات العربية، و حضّرت إحدى الباحثات في مجال علم النفس رسالة دكتوراة في هذه الرواية تحت عنوان "صراع المقهور مع السلطة".

"عدت إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة، سبعة أعوام على وجه التحديد، كنتُ خلالها أتعلّم في أوروبا. تعلمت الكثير وغاب عني الكثير، لكن تلك قصة أخرى".

هكذا تبدأ رواية الطيب صالح بعودة الراوي وهو طالب سوداني كان يدرس في لندن ويصف كيف استقبلته الوفود من أهالي قريته ليرحبوا بعودته سالما ولكنه يطالع بين الوجوه وجها غريبا لا يعرفه، وعند السؤال عنه يعرف أنه يُدعىٰ "مصطفى سعيد" وهو رجل من الخرطوم جاء إلىٰ القرية منذ خمس سنوات و اشترى أرضاً عمل بها ثم تزوج بإحدى بنات القرية و أنجب منها طفلين، وأجمع أهل القرية علىٰ أنه رجل صالح و طيب، ولكن أهل القرية لا يعرفون عنه الكثير.

يصف جد الراوي مصطفىٰ سعيد قائلا: "..إن مصطفىٰ طول إقامته في البلد، لم يبدو منه شئ منفر، وأنه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام، وأنه يسارع "بذراعه وقدحه في الأفراح والأتراح".

اعترافات البطل

دعي الراوي ذات مساء إلىٰ مجلس شراب في بيت صديقه منذ الطفولة "لمخوب"، وكان مصطفىٰ سعيد حاضرا، وبعد أن شربا قليلاً، بدأ مصطفىٰ سعيد وقد أدار الخمر رأسه يهذي ويردد شعراً إنجليزياً بلهجة متقنة، الأمر الذي أثار فضول الراوي وجعله يسأل مصطفىٰ سعيد عن سر شعره هذا، فدعاه في اليوم التالي ليخبره بكل شيء .. قصته، حياته، رحلته باتجاه الشمال، مغامراته العاطفية، تسببه بانتحار ثلاث نساء إنجليزيات، و قتل زوجته الإنجليزية أيضا....السجن، الضياع ..

وقص مصطفىٰ سعيد علىٰ الراوي كيف أنه نشأ يتيما في الخرطوم وعاش مع والدته فقط ولم يكن له أهل ويصف نفسه قائلا: "... منذ صغري، كنت أحس بأنني مختلف. أقصد أنني لست كبقية الأطفال في سني، لا أتأثر بشيء، لا أبكي إذا ضربت، لا أفرح إذا أثنىٰ علىَّ المدرس في الفصل، لا أتألم لما يتألم له الباقون. كنت مثل شيء مكور من المطاط، تلقيه في الماء فلا يبتل، ترميه علىٰ الأرض فيقفز".

ويمضي يحكي له عن محطات مهمة في حياته بدأت بدخوله المدرسة وتفوقه ونبوغه فيها فيقول: "..سرعان ما اكتشفت في عقلي مقدرة عجيبة علىٰ الحفظ والاستيعاب والفهم. اقرأ الكتاب فيرسخ جملة في ذهني. ما ألبث أن أركز عقلي في مشكلة الحساب حتىٰ تنفتح لي مغالقها، تذوب بين يدي كأنها قطعة ملح وضعتها في الماء". ويحدثه عن تفوقه في اللغة الإنجليزية حتىٰ أن ناظر المدرسة وكان إنجليزيا قال له: "هذه البلد لا تتسع لذهنك، فسافر. إذهب إلىٰ مصر أو لبنان أو إنجلترا. ليس عندنا شيء نعطك إياه بعد الآن".

القاهرة ثم لندن

مكافأة لتفوقه سافر مصطفىٰ سعيد إلىٰ القاهرة ودخل مدرسة ثانوية مجانية هناك، ويروي مصطفىٰ لحظة إخباره لأمه بسفره ووداعه لها قائلا: "..كان ذلك وداعنا. لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء. مخلوقان سارا شطرا من الطريق معا، ثم سلك كل منهما سبيله". كان في القاهرة علىٰ موعد للقاء مستر روبنسن وزوجته التي كانت تصفه بأنه إنسان خال تمام من المرح ولا يستطيع أن ينسىٰ عقله أبدا، وبعد دراسته في القاهرة سافر إلىٰ لندن في بعثة دراسية.

وفي طريقه إلىٰ لندن يقول: "..فكرت في حياتي في القاهرة. لم يحدث شيء ليس في الحسبان. زادت معلوماتي. وحدثت لي أحداث صغيرة، وأحبتني زميلة لي ثم كرهتني وقالت لي: "أنت لست إنسانا. أنت آلة صماء".

في لندن تظهر عبقرية مصطفىٰ سعيد ويصبح محاضرا في الاقتصاد بجامعات لندن، اجتذب النساء البريطانيات وأقام علاقات متعددة معهن وبهرهن بحكاياته عن الشرق والغابات والحيوانات الإفريقية، أدمنت النساء سحر مصطفىٰ سعيد ولم يستطعن التخلص من حبه سوى بالانتحار. إنه مرض الحب! عبّر مصطفىٰ سعيد عن رفضه للاستعمار بالعنف الذي كان وسيلة للانتقام من الحضارة الغربية خاصة وأن هذا العنف اتّجه نحو النساء، باعتبارهنّ الطرف الأضعف في معادلة الصراع بين الشرق والغرب.

انتحل الأسماء ليوقع الأوروبيات في حبائله، وصار ينتقل من فريسة إلىٰ أخرى وبسببه انتحرت ثلاث فتيات: آن، شيلا، ايزابيلا. وقتل هو زوجته "جين موريس" التي تحدته لمدة ثلاث سنوات وحين ملت من مطاردته قررت الزواج به.

يقول عن انتحار السيدات البريطانيات بسببه: "..

وأنا فوق كل شيء مستعمر، إنني الدخيل الذي يجب ان يبت في أمره. إنني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة، وقعقعة سنابك خيل اللنبي وهي تطأ أرض القدس. إنهم جلبوا إلينا جرثومة العنف الأوروبي الكبير الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل، نعم يا سادتي، إنني جئتكم غازيا في عقر داركم. قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ".

ويؤكد قائلا: "..إلىٰ أن يرث المستضعفون الأرض، وتُسَرّح الجيوش، ويرعىٰ الحمَل آمنا بجوار الذئب، ويلعب الصبي كرة الماء مع التمساح في النهر، إلىٰ أن يأتي زمن السعادة هذا، سأظل أعبّر عن نفسي بهذه الطرق الملتوية".

ويتذكر قول القاضي قبل أن يصدر عليه الحكم في الأولد بيلي: "إنك يا مستر مصطفىٰ سعيد، رغم تفوقك العلمي، رجل غبي. إن في تكوينك الروحي بقعة مظلمة، لذلك فإنك قد بددت أنبل طاقة يمنحها الله للناس: طاقة الحب".

حوكم مصطفىٰ سعيد بتهمة قتل زوجته وقضىٰ سبع سنوات في السجن عاد بعدها إلىٰ السودان ليستقر في القرية ويتزوج حسنة بنت محمود وينجب طفلين ويزرع أرضه، عاد ليعيش حياة هادئة بعيدا عن الصخب والعنف.

انتحار أم غرق؟

تمضي أحداث الرواية ونتوقف عند موت مصطفىٰ سعيد غرقا في احدى مرات فيضان النيل، هكذا رحل مصطفىٰ سعيد، ويترك الطيب صالح للقارئ معرفة هل هو موت أم انتحار حيث يقول علىٰ لسان زوجته حين كانت تتحدث للراوي: "كأنه كان يحس بدنو أجله، قبل موته بأسبوع رتب كل شئونه وقبل موته بيوم دعاني وحدثني بما عنده. أوصاني كثيرا علىٰ الولدين. أعطاني الرسالة المختومة بالشمع. قال لي. أعطها له إذا حدث شيء. وقال لي إذا حدث شيء فأنت تكون وصيا علىٰ الأولاد".

غلاف الكتاب

كان هناك رابط خفي يربط بين الراوي وبطل الرواية "مصطفىٰ سعيد" تجعل كل منهما يفهم الآخر ويعرفه جيدا..قد يكون ذلك بسبب تجربة السفر لكل منهما إلىٰ نفس المكان، وقد يكون خوف الراوي أن يصبح نسخة من مصطفىٰ سعيد ويلاقي نفس مصيره وفي ذلك يتساءل الراوي: "...هل كان من المحتمل أن يحدث لي ما حدث لمصطفىٰ سعيد؟ قال إنه أكذوبة؟ فهل أنا أيضا أكذوبة؟".

يترك مصطفىٰ سعيد رسالة للراوي يوصيه بزوجته وولده وكل ماله ، فهو يثق بأمانته . ونعرف من الخطاب أيضا ان مصطفىٰ سعيد ترك للراوي مفتاح غرفة خاصة به فيقول: "...أعلم أنك تعاني من رغبة استطلاع مفرطة بشأني، الأمر الذي لا أجد له مبررا. فحياتي مهما كان من أمرها ليس فيها عظة أو عبرة لأحد".

يرحل الراوي إلىٰ الخرطوم ليعاود عمله الذي كان قد بدأه هناك و للعيش مع زوجته و أولاده هناك تاركا تلك القرية التي يعود إليها بين الحين والآخر لزيارة أهله و السؤال عن شئون زوجة مصطفىٰ سعيد وولديه.

حسنة .. نهاية مؤلمة

بعد وفاة مصطفىٰ سعيد ترفض حسنة بنت محمود الزواج فقد كانت متعلقة بزوجها الراحل ولكنها لم تستطع أن تصمد طويلا في وجه الأطماع المتزايدة من رجال القرية الذين يبدلون نساؤهم كما يبدلون أي شيء في منزلهم خاصة من "ود الريس" وهو رجل عجوز مزواج لا يتصور أن تكون المرأة لها رأي في زواجها خاصة إذا كانت أرملة ويتفق أن يتزوجها مع والدها رغما عنها، الأمر الذي أسفر في النهاية عن مأساة حيث قتلته حسنة وقتلت نفسها ورأت حينها أنها إذ ذاك تقتل العادات والتقاليد التي تجعل من المرأة مجرد متاع وظيفته إشباع الرجل فقط. ويصور الطيب صالح هذا المشهد بمأساوية شديدة. هذه الأحداث تجري في غياب الراوي في عمله بالخرطوم.

بعد عودته يُحمل الراوي نفسه مسئولية ما حدث لحسنة خاصة بعد أن علم أنها طلبت من جده في غيابه أن يعقد عليها فقط ويتركها مع ولديها لينقذها الأمر الذي رفضه الجد، ويكتشف الراوي انه أحب حسنة وكان بإمكانه أن ينقذها من مصيرها هذا.

ويحنق الراوي علىٰ مصطفىٰ سعيد ويذهب إلىٰ غرفته الخاصة ليطلع علىٰ ما فيها عازما علىٰ أن يحرقها بمحتوياتها.

وعندما يدخل الراوي غرفة مصطفىٰ سعيد الخاصة التي تبلغه زوجته انه كان يقضي بها وقتا طويلا ولا يسمح لأحد أن يدخلها يجدها غرفة مليئة بالكتب المتنوعة، ومحاولة لم تكتمل لمصطفىٰ سعيد بأن يكتب مذكراته يشهد عليها صالح صفحات !! المسألة إذن لو جرت في الواقع لكانت شاذة، ولما استحقت كل هذه التفاصيل في السرد .

المؤلف في سطور: اعتبر الناقد صلاح فضل أن الطيب صالح هو "هدية السودان إلىٰ العرب وإفريقيا والعالم". ولد الطيب صالح عام 1929م، حصل من جامعة الخرطوم علىٰ درجة البكالوريوس في العلوم. ثم سافر إلىٰ لندن حيث واصل دراسته، وغيّر تخصصه إلىٰ دراسة الشئون الدولية.

عمل الطيب صالح لسنوات طويلة من حياته في القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، ثم عاد إلىٰ السودان وعمل لفترة في الإذاعة السودانية، ثم هاجر إلىٰ دولة قطر وعمل في وزارة إعلامها وكيلاً ومشرفاً علىٰ أجهزتها.

ثم عمل بعد ذلك مديراً إقليمياً بمنظمة اليونسكو في باريس، وممثلاً لهذه المنظمة في الخليج العربي. من أهم مؤلفاته: عرس الزين، مريود، دومة ود حامد.

الراوي يلتقي أثناء سفره إلىٰ الخرطوم بأحد زملاء مصطفىٰ سعيد في الدراسة الذي يصفه بأنه أنبغ تلميذ كان في فصله ، بل ومن مهارته في نطق الانجليزية أسموه بخليط من الإعجاب والحقد "الإنجليزي الأسود".

ويبرز للرواي بعدا سياسيا في حياة مصطفىٰ سعيد قائلا علىٰ لسان أحد أصدقائه: "..كان أول سوداني تزوج إنجليزية، غريب أن أحدا هنا لا يذكره، مع أنه قام بدور خطير في مؤامرات الإنجليز في السودان في أواخر الثلاثينات.

إنه من أخلص أعوانهم. وقد استخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مريبة في الشرق الأوسط".

ونجد أن تأثيره وضح عند عودته لقريته فها هو لمخوب أحد الفلاحين في القرية وصديق الراوي يصفه قائلا أنه كان عقلية واسعة فقد أشار علينا إقامة طاحونة للدقيق وفرت علينا أتعابا كثيرة، كان العمدة والتجار يكرهونه كراهية شديدة لأنه فتح عيون أهل البلد وأفسد عليهم أمرهم. ذلك هو الرجل الذي كان يستحق أن يكون وزيرا في الحكومة لو كان يوجد عدل في الدنيا.

ولكن يؤخذ علىٰ الرواية إسهاب الطيب صالح في الجنس بشكل غير موظف ولا يقبله العقل .. إذ أننا شعوب متدينة بطبيعتها، وليس من الشائع أن تسمع عن جلسة ريفية بها امرأة تجلس بين الرجال تشرب الخمر وتدخن وتتحدث بإباحية مفرطة ويشترك معها الرجال في حديث ماجن أفرد له الطيب صالح صفحات !! المسألة إذن لو جرت في الواقع لكانت شاذة، ولما استحقت كل هذه التفاصيل في السرد .

المؤلف في سطور: اعتبر الناقد صلاح فضل أن الطيب صالح هو "هدية السودان إلىٰ العرب وإفريقيا والعالم". ولد الطيب صالح عام 1929م، حصل من جامعة الخرطوم علىٰ درجة البكالوريوس في العلوم. ثم سافر إلىٰ لندن حيث واصل دراسته، وغيّر تخصصه إلىٰ دراسة الشئون الدولية.

عمل الطيب صالح لسنوات طويلة من حياته في القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، ثم عاد إلىٰ السودان وعمل لفترة في الإذاعة السودانية، ثم هاجر إلىٰ دولة قطر وعمل في وزارة إعلامها وكيلاً ومشرفاً علىٰ أجهزتها.

ثم عمل بعد ذلك مديراً إقليمياً بمنظمة اليونسكو في باريس، وممثلاً لهذه المنظمة في الخليج العربي. من أهم مؤلفاته: عرس الزين، مريود، دومة ود حامد.

«بين المعدّاوي وفدوىٰ»

حكاية طويت برحيله وعزلتها

الكتاب: بين المعدّاوي وفدوى طوقان.. صفحات مجهولة في الأدب العربي
الكاتب: رجاء النقاش
عرض: رسمي أبو علي

بين المعدّاوي وفدوى طوقان.. صفحات مجهولة في الأدب العربي (دار الشروق، 2009) كتاب من تأليف الناقد المصري المعروف رجاء النقاش، الذي رحل عن عالمنا قبل عام تقريبا، وهو يتحدث عن علاقة خاصة جدا بين أنور المعدّاوي، الناقد المصري البارز في خمسينيات القرن الماضي وستينياته، وفدوى طوقان، إحدى أهم شاعرات العرب في العصر الحديث.

كان المعدّاوي قد أُعجب بشعر فدوى طوقان، حيث كانت قد بدأت بنشر أولىٰ قصائدها في مجلة الرسالة المصرية التي كان يرأس تحريرها الأديب المصري أحمد حسن الزيات، وكانت فدوى قد نشرت عددا من قصائدها في مجلة الرسالة وغيرها، تحت أسماء مستعارة، أحدها كان دنانير ، إذ إنها لم تكن تجرؤ علىٰ توقيع اسمها الصريح علىٰ قصائدها خوفا من بطش الأهل الموغلين في التمسك بالتقاليد المحافظة. ولقد روت فدوى طوقان قصة حياتها في كتاب حمل عنوان رحلة جبلية.. رحلة صعبة ، ويرى كثير من النقاد أن هذه السيرة الذاتية واحدة من أصدق وأجمل ما كُتب باللغة العربية ضمن هذا اللون من الأدب.

أما أنور المعدّاوي، فكان أبرز ناقد عربي في الفترة التي تعرّف فيها بفدوى، وكان بالإضافة إلىٰ ذلك، كما يصفه الكاتب رجاء النقاش، رجلا وسيما طويل القامة، شهما لا يتردد في مساعدة الأدباء الشباب بكل الوسائل، وكان رجاء أحدهم.

إذن، بدأت العلاقة من خلال الرسالة التي كان المعدّاوي يكتب فيها أيضا زاوية أدبية، وتجلّت العلاقة من خلال المراسلة فقط، إذ إنهما لم يلتقيا قط، رغم أن العلاقة بينهما تعدّت الزمالة الأدبية إلىٰ عاطفة قوية عميقة، هي الحب من كلا الطرفين.

في الكتاب يورد المؤلف النص الحرفي لسبع عشرة رسالة بعث بها المعدّاوي إلىٰ فدوى خلال الفترة 1951 – 1953.

السؤال الذي يمكن أن يطرحه القارئ: لكن أين رسائل فدوى إلىٰ أنور المعدّاوي؟.

يجيب المؤلف بأن المعدّاوي لفرط حرصه علىٰ فدوى وسمعتها، كان يتلف الرسائل التي تأتيه منها، لأنه كان يخشىٰ، وهو الذي كان مريضا جدا بعد بدء علاقته بفدوى بسنتين، أن تقع الرسائل في أيد غير أمينة، فقام بإتلافها، وأما رسائل المعدّاوي لفدوى فقد كان النقاش طلبها من فدوى التي قامت بإرسالها إليه، وذلك بعد أن نضجت وانتشر اسمها كشاعرة كبيرة، وبعد أن تلاشت قبضة رجال الأسرة المحافظين برحيل معظمهم، فلم تعد تبالي بالتقاليد الجامدة القديمة، ولذلك لم تتردد في إرسال رسائل المعدّاوي إليها إلىٰ رجاء النقاش، الذي قام بنشرها في هذا الكتاب. لم يكتف النقاش بنشر الرسائل، لكنه قام بالتعليق علىٰ كل رسالة بالتفصيل، مبديا ملاحظاته الدقيقة حول العديد مما يرد في كل رسالة، ولهذا فإن تعليقات النقاش ليست متعلقة بتفاصيل علاقة عاطفية بين ناقد وشاعرة، لكنها نوع من التأريخ والإضاءة لواقع الثقافة العربية ولواقع المثقفين العرب ومأساتهم في تلك الفترة.

يؤكد النقاش في أكثر من موقع في الكتاب أن العلاقة بين المعدّاوي وفدوى كانت علاقة حب عميقة، ولا شك في ذلك، لكنه كان حبا انتهىٰ نهاية مأساوية برحيل المعدّاوي، وعزلة فدوى العميقة بعد ذلك. يرى النقاش أنهما كانا يليقان كلٌ بصاحبه، وكان من الممكن أن يلتقيا وأن يتزوجا وأن يعيشا حياة مثمرة سعيدة، لكن التقاليد وقفت في طريقهما، إذ كانت فدوى في ذلك الوقت (1951) فتاة شابة تشق طريقها في الشعر بعيدا عن معرفة الأهل الذين ما كانوا يسمحون لها بتوقيع اسمها الصريح في الصحف، إذ إن هذا يعدّ عورة وعارا في مفهومهم، إضافة إلىٰ أنهم كانوا يرفضون تزويج بناتهم خارج الأسرة بأي شكل.

يقول النقاش إنه تردد طويلا قبل نشر هذه الرسائل في كتاب، ويضيف: واجهتني أكثر من مشكلة وأنا أعد هذا الكتاب، وهي كلها مسائل تتصل بهذه القضية: هل أكون صريحا في الحديث عما أراه صحيحا، أم ألتزم الكتمان والإخفاء؟ لقد ترددت كثيرا في الاختيار، إلا أنني قررت أن تكون الحقيقة هي الأساس الوحيد لكل ما يتصل بهذه الرسائل من تعليقات وشروح . ويتابع أن الرسائل تكشف بوضوح عن قصة حب بين المعدّاوي وفدوى، حب طاهر عفيف مثالي غير آثم. فما الذي يدعو للتكتم علىٰ مثل هذا الحب، خصوصا أن فدوى نفسها دفعت بالرسائل إلىٰ رجاء النقاش. أما في ما يتعلق بالمعداوي، فإن الأمر يبدو أكثر تعقيدا، فبسبب معرفة النقاش بالمعداوي وبمدى حساسيته البالغة، لم يكن واثقا أن المعدّاوي سيكون موافقا علىٰ نشر الرسائل لأسباب عديدة، أهمها ما يسميه النقاش السر الكبير في حياة المعدّاوي الذي كان يمنعه عمليا وفعليا من الزواج. هذا السر هو أن المعدّاوي كان مريضاً، ويرجح النقاش أن يكون المرض عضويا وليس نفسيا، وكان يلاحظ أن جميع علاقات المعدّاوي العاطفية كانت تنتهي بالفشل. ولكن ماذا عن الآخرين؟ هل سلّم الجميع بأن العلاقة بين المعدّاوي وفدوى كانت علاقة حب، أم إنها كانت مجرد صداقة وزمالة أدبية وثقافية!. لهذه الرسائل قيمة أخرى، فهي ليست مجرد رسائل حب وإعجاب، لكنها تكشف عن الأجواء التي كان المثقفون العرب يعيشونها في تلك المرحلة. إنها قصائد جميلة، بل هي قطع فريدة من رسائل الحب الراقية، حيث يخلط الحب بالمحبة بالاحترام والتقدير والحرص علىٰ كل كلمة في الرسالة خوف أن تجرح حساسية أو تثير تساؤلا.

«عندما تشيخ الذئاب»

عري الجسد واستثمار الدين وتهافت السياسة

الكتاب: عندما تشيخ الذئاب
الكاتب: جمال ناجي
عرض: يوسف الحوراني

رغم كل ما يود المشاركون في هذه الرواية قوله، سواء أكان صدقاً أم كذباً، أم دفاعاً عن النفس، فإن الحقيقة لن تكون حَرِيّة بالاهتمام، إذا لم تكن قادرة علىٰ حماية نفسها. بهذه العبارة ابتدأ جمال ناجي روايته الجديدة التي حملت عنوان عندما تشيخ الذئاب، ولعل الحقيقة التي تتحدث عنها هذه المقدمة صعبة المراس وعنيدة، لأن التداخلات التي تعيشها شخصيات الرواية تحتال علىٰ الحقائق التي تضمرها كل شخصية، والأهم أن هذه الشخصيات تحاول طمس هذه الحقائق عن طريق أقوالها وإقراراتها التي تلتقي وتتنافر مشكّلة علامات استفهام كبرى تثير القارئ الذي اعتاد الوقوف علىٰ محصلات روائية تقليدية تقدم له الحقيقة علىٰ شكل مكافأة في الصفحات الأخيرة من الرواية.

عندما تشيخ الذئاب ليست معنية بتلك المحصلات بقدر ما هي معنية بإثارة الأسئلة التي تومئ إلىٰ الأبعاد العميقة التي تشف عنها الأحداث دون المباشرة بالتصريح عنها، وبهذا يصير المطلوب من القارئ أن يعيد التفكير في الأسئلة إذا أراد التعرف علىٰ إجاباتها بدقة. لا بد من الإشارة إلىٰ ما تتمتع به هذه الرواية من جاذبية قوية للقارئ وخوض جريء في الأقانيم الوعرة المعروفة: السياسة والدين والجنس. لا تبدو السياسة في هذه الرواية جماهيرية ولا خطابية ولا متحمسة، إنما هي أقرب إلىٰ واقعية السياسي العربي الذي يخوض نضالات طويلة ويقدم التضحيات لبقع في مرحلة من حياته أسير رغباته الدفينة في تولي السلطة، إنها الواقعية المقنّعة التي تبدو جلية في شخصية جبران اليساري، الذي يقرر متأخرا بأن التغيير لا يتم إلا عن طريق المشاركة في السلطة ومن داخلها لا من خارجها. هذه النتيجة التي استخلصها جبران، تبدو نتاجا منطقيا أملته أسباب النضج والشيخوخة عليه، وهي في حقيقتها نتيجة اضطرارية فرضتها الإخفاقات التي منيت بها الأحزاب السياسية في صراعها مع السلطات خلال الحقب الماضية، علىٰ أن المثير في المسألة أن جبران يوهم نفسه بالنتيجة الأولىٰ متناسيا فشله وفشل الأحزاب والتنظيمات في الاقتراب من مائدة السلطة عن طريق المعارضة المزمنة، يقول جبران: أستطيع القول، بناء علىٰ تجربتي، إن أول ما يلفت انتباه المعارض حين يصير وزيراً، هو تلك الحيل النفسية التي تتكاثر وتتوالد لتخلق لديه يقيناً بأنه يستحق الوزارة بعد تاريخه النضالي الطويل.

لكن جبران لا يقر بهذه الحقيقة إلا بعد تقاعده وانتهاء دوره في الحياة العامة وابتدائه بكتابة مذكراته، مذكرات الذئب الذي شاخ أخيرا، وهو ما يتكرر بطريقة مختلفة، عند رجل الدين الشيخ عبد الحميد الجنزير الذي يعد واحدا من مروضي السياسيين وصناع الوزراء وباعة الحقائب الوزارية، فالجنزير ليس هاويا أو مبتدئا في العمل السياسي، رغم أنه يحرص علىٰ أن يتخذ مظهر الشيخ الحاني علىٰ تلاميذه، المتصالح مع ذئاب السياسة الذين يزورون مزرعته ليلا، بحثا عن مواقع لهم في الدولة!

يمكن قراءة هذا التشخيص والوصول إليه من خلال ما ورد علىٰ لسان الشيخ الجنزير في الرواية، فهو يقول في وصفه رواد مزرعته: كانوا يجتهدون في تفسيرهم لأسباب إقالة هذا المسؤول أو ذاك، وتوقعاتهم بمن سيتسلم هذا المنصب أو ذاك، وما إذا كانت الحكومة ستتغير، أم إنها ستعمّر بضعة شهور كي تتم دورها في تحسين الأوضاع الاقتصادية، أو حل مشكلة داخلية تتعلق بالنقابات أو الأحزاب، أو إجراء الانتخابات النيابية، أو رفع الدعم عن بعض السلع والمستلزمات، أو تحسين العلاقات عما هو مألوف في الجوار، أو غير ذلك مما تقتضيه المصالح العامة، ولكي يؤكدوا سلامة اجتهاداتهم وتوقعاتهم، كان بعضهم يبوح بمعلومات تعد من أسرار الدولة. هنا تطل شخصية عزمي الوجيه من خلال ما يقوله الشيخ الجنزير عنه: عزمي الوجيه لماح.

قال لي: من يحضرون إلىٰ المزرعة أربعة أنواع، وزراء أو نواب نافذون وسابقون، مستوزرون أو مستنوبون، رجال أعمال وأموال، ونوع رابع من الطامحين بأمور لا يعلمها إلا الله وهم، لذا فهم باطنيون مشفرون .

الصراع السياسي المزمن بين اليمين ممثلا بالشيخ الجنزير، وبين اليسار ممثلا بجبران، يستمر، لا يستسلم أحدهما للآخر، رغم ما شهده العالم من تغيرات وتحولات، فالشيخ يقول مخاطبا جبران اليساري بنبرة مفعمة بالثقة: قلت لك منذ زمن، أنتم أصحاب مبادئ ونحن أصحاب عقيدة، المبادئ لا تصمد كالعقيدة، لأنها فضفاضة وعمومية، حتىٰ إنها تكاد لا تقول شيئاً مفيداً، أما العقيدة فواضحة وتقول كل شيء، وفوق هذا فهي من عند الله. لكن، رغم كل هذا، فإنه ما كان لجبران أن يصير وزيرا لولا تصالحه الموسمي مع الشيخ الجنزير، وما كان له أن يتأهل للوزارة لو لم تتقارب المسافات بينه وبين رجل الدولة (أبو رامي) الذي يصفه قائلا وملخصا الموقف السياسي للجهات التي يمثلها: أبو رامي ليس ثرثاراً ولا مجاملاً في أفكاره، إنما أكثر ميلاً إلىٰ تحليل الظواهر والأحداث بعقل بارد.

فهو يؤكد أنه لا يجوز لأحد أن يتوقع منا مهاجمة إسرائيل أو السماح بمهاجمتها من أراضينا، لأن هذا يعد انتحارا. السلطة الفلسطينية نفسها لا تقر مهاجمة إسرائيل وتريد حلولاً سياسية معها.

نحن نفعل ما بوسعنا علىٰ المستويات الدولية لمساعدة هذه السلطة.

نستثمر علاقاتنا مع أميركا وأوروبا وغيرهما لدعم القضية وإقامة الدولة الفلسطينية، لكن عن طريق العمل الدبلوماسي. أما ما تطالبنا به الأحزاب والنقابات وسائر الأوساط الصاخبة، فمحض ثرثرات غير محسوبة لا يمكننا الأخذ بها، ولو فعلنا مثلما يريدون، لتقوض استقرارنا الوطني الذي يعد مثالياً.. . هكذا تفكك الرواية خطابي المعارضة والسلطة، وتنظر إلىٰ داخلهما لتخرج بنتائج مختلفة عما هو مألوف في قراءة هذين الخطابين. إنها البراغماتية التي يتسم بها السياسي العربي سواء كان في السلطة أو في المعارضة.

الدين في الرواية أشبه بشماعة تستخدمها بعض الشخصيات لتحقيق الثراء والاستحواذ علىٰ أكبر قطعة من كعكة المجتمع والسلطة، فهو لم يشكل متكأ جديا لإصلاح الخلق وتحسين صورة الحياة، حتىٰ لدى الشيخ عبد الحميد الجنزير الذي يفتتح مراكز تحفيظ القرآن، ويداوي الناس بالأعشاب والتعاويذ والآيات القرآنية، ويستولي علىٰ المنابر الدينية، ويلقي خطبه أمام الناس، ويتصوف في مرحلة من حياته، ويجمع التبرعات لإقامة المساجد ومراكز تحفيظ القرآن وإعالة الأيتام، كما أن أتباعه الذين يريدون تغيير الأشياء بقوة السيف إنما يضفون بعدا يبدو للوهلة متطرفا كما هو الحال مع شخصية بكر الطايل الذي لم يكن سوى غطاء استخدمه الشيخ عبد الحميد الجنزير لتمرير بعض غاياته. أما الشخصية الملغزة في الرواية، عزمي الوجيه، فقد بدأ حياته كواحد من تلاميذ الشيخ الجنزير، لكن قدراته العقلية وذكاءه أديا إلىٰ منافسته للشيخ، وخروجه عن طوعه، وتحوله إلىٰ شخصية عامة غير متدينة، بعد أن اشترك مع الشيخ في اختلاس أموال مراكز تحفيظ القرآن، والاستحواذ علىٰ عطاءات بناء المساجد والمؤسسات الدينية الخيرية في إطار استثمار صريح للمنابر الدينية، لكن عزمي الوجيه يختط لنفسه مسارا آخر مختلفا عن ذاك الذي ينتهجه الجنزير، رغم استمرار علاقته معه، وربما يعود سر هذه العلاقة إلىٰ مسألتين أساسيتين: المصالح المشتركة التي جمعتهما، ورغبة الشيخ في الزواج من سندس التي تقيم علاقة شهوانية مع عزمي الوجيه، ابن زوجها.

هذه الرواية تقدم نقدا لاذعا لممارسات رجال الدين الذين يقومون بتسييس واستثمار الدين بذرائع تتنافىٰ مع النصوص التي يتم الالتفاف عليها من أجل تحقيق المنافع والغايات غير المشروعة. لا تسمح مساحة هذه المقالة باقتباس الفقرات التي تتناول الجنس بجرأة، ولكن يمكن تسليط الضوء علىٰ بعض المقاطع التي تقدم صورة تقريبية لما تزخر به الرواية من إيحاءات جسدية.

غلاف الكتاب

يحتل الجنس في الرواية مساحة واسعة، فهو يأتي تارة علىٰ شكل إيحاءات مثيرة للقارئ، وعلىٰ لسان سندس التي يسطع نجمها في الرواية، فهي تصف ابتداء علاقتها بزوجها الثاني رباح الوجيه قائلة: تطور الأمر ليلة رآني في الزقاق بثوبي الوردي، فأمسك ذراعي برجولة أوحت لي بفحولة محشورة، ولزني إلىٰ الحائط وقال: جهزي حالك، نويت أن أخطبك من أمك!.

قالها بنبرة راقت لي، فاكتفيت بسكوتي المتواطئ، واسترجعتُ تلك اللحظات مراراً بعد أن أويت الىٰ فراشي . هذه الإيحاءات الجنسية لا تلبث أن تتحول إلىٰ بوح أو تصريح مباشر بسبب انحكامها إلىٰ سياقات موضعية ومقتضيات تعبيرية وفنية في الرواية. الجنس في الرواية يتركز حول شخصية سندس التي تزوجت ثلاث مرات، وأقامت علاقة حب مع عزمي الوجيه ابن زوجها، وفي الوقت نفسه، استمتعت بما لدى الجنزير من معالجات حسية تثير شهوتها. لغة الجسد التي تستخدمها سندس، تتخذ أبعادا مختلفة حين نقرأها علىٰ ألسنة الشخصيات الأخرى، كالشيخ الجنزير، جبران، رباح الوجيه، وحتىٰ هذا الاختلاف فإنه ينطوي علىٰ اختلافات أخرى بين هذه الشخصيات في تفسيرها ووصفها للجنس الذي يعد واحدا من مرتكزات الرواية.

لو قام القارئ بمقاربة ما ورد علىٰ ألسنة شخصيات الرواية لاقترب من الحقيقة المستترة في بانوراما الحوار الصامت حينا والصاخب أحيانا، فالشيخ الجنزير يقول، وكأنه يرد علىٰ ما ورد علىٰ لسان سندس من أن عينيه تدعوانها إلىٰ لملمة نفسها خشية انكشافها أمامه: حسبتُها حرثا ميسوراً، ولولا مخافة ربي واستعاذاتي به من الشيطان في قلبي لاستجبت لنداء بدنها ووطئتُها وفعلت بها ما أفعل بزوجتي أم صهيب . الشيخ الجنزير في قوله هذا يكذب الاحتشام الذي تدعيه سندس، وفي الوقت نفسه يشتبك مع زوجها رباح الذي ينسىٰ نفسه في لحظات ضعفه، ويفصح –في وقت متأخر من الرواية– عما يعانيه.

بهذا تكشف المقاربة ما خفي من مقدمات الجموح التي ضلل رباح خلالها قارئه، كما تكشف النوايا الخبيثة التي يكنها الشيخ الجنزير لسندس التي لم تستطع إخفاء تسكعها الجسدي المؤقت معه وشهوتها المزمنة لابن زوجها عزمي الوجيه. ما حقيقة سندس؟ وإلىٰ أين تتجه بوصلة شهواتها؟ ولماذا تنقلت بين متاهات ثلاثة رجال يختلفون عن بعضهم بعضاً، سواء من حيث المستوى الاجتماعي، أو طرائق التفكير، أو وسائل التعبير، أو وسائل الاستيلاء علىٰ جسد تلك الأنثىٰ التي ترى في استسلامها انتصارا لها!.

القراءة المتأنية للرواية تبين أن سندس قد نذرت جسدها لعزمي الوجيه، وهو الشخصية الغامضة التي تظل محتفظة بأسرارها حتىٰ النهاية، لكن بدايات الاتصال بينها وبين عزمي اصطدمت بواقع قناعاته الدينية التي تردعه وتمنعه من الاستجابة لرغباتها، وهو ما زادها إصرارا علىٰ تحقيق غايتها، غير أن التحولات التي عاشها عزمي في ما بعد أدت إلىٰ تغير جذري في سلوكه إلىٰ حد أنه انغمس في ملذاته معها متناسيا أنها كانت زوجة أبيه رباح. يمكن القول إن جمال ناجي قدم لنا في هذه الرواية عالما زاخرا بالتفاصيل التي لا تُمل، وشخصيات لا تتصالح م